الإرادة». يريد «أسامة» تحرير الوطن بشكل من الوعي يقود إلى الموت المجاني، أو ما يشبهه، بوعي اصغر بكثير من الشرط التاريخي الذي يتعامل معه، وعندهاينكفىء الوعي ويظل «الشرط» «ينتظر» وعيه الموافق، أو ينتج في حركته وفي علاقته مع «الفلسطيني العادي» هذا الوعي في سيرورة «بطلها» الوحيد هو الشعب. ويمكن أن نتعرف على حدود «أسامة» إذا قرأنا المركبات الأيديولوجية التي يلهج بها نظرا، ويعتمدها عملاً.

– «الشعب: خدعة، اليد الواحدة لا تصفق، وأنا واحد. أنا واحد!» (ص ٢٢٨).

– «زهدي وشحادة وأبو النوف [عمال]؟ هؤلاء الجهلة لا يعرفون ما يفعلون» (ص ١٠٥).

– «لو أن عادل خرج من المنطقة والتقى الرفاق في الخارج لاختلف الوضع. فهذه المنطقة المحصورة ما بين النهر وسياج العدو باتت تشكل خطرا جسيما على الفكر الثوري في المنطقة. لقد استوعبوهم، أبطروهم، وغسلوا أدمغتهم بالأكاذيب والليرات» (ص ٩٦). و«تفسيري الوحيد هو أنكم تخلفتم عن الركب الثوري. الناس في الخارج يلاحظون هذا ويكتبون عنه» (ص ١٠٧).

– «الاقتصاد لا يصنع التاريخ. والمادة ليست المحرك والدافع والهدف. ماذا عن المبادىء والمثل؟ ماذا عن الأخلاق والقيم؟ ماذا عن الحق والعدالة؟» (ص ٩٥).

في هذه المقاطع، استطاعت سحر أن ترسم السمات الفكرية لهذا «البطل الرومانسي»، والسمات واضحة وضوح هزيمته «القادمة»، تطلق معاييرها بشكل عمودي لا زوغان فيه: الثورة عمل فردي يحققه فرد متوحد، يضحي بذاته من أجل شعب أقل مرتبة منه. الأخلاق والمثل والعدالة هي محرك التاريخ الوحيد الذي لا يعطي معناه إلا للنخبة العارفة. الثورة لا يحققها الشعب في نضاله اليومي المتميز بل «تصدرها» العقول العارفة «في الخارج». الحاضر لا معنى له لأن الشعب فيه غارق في جهله، «والخير كل الخير» في نقاء «الأيام القادمة» التي سترفع رايتها «أجيال جديدة» تعرف معنى القيم والأعراف الأصيلة. سمات فكرية بلا غبار لطبقة أو لفئات اجتماعية محددة خبرت التاريخ فلم تخبره إلا بسقوطها المتكرر، ودخلت الثورة فلم تر فيها إلا جسرا ووسيلة للتمايز الاجتماعي وركوب حركة الجماهير القاتلة وقيادتها من مكاتب الخارج: وكيف تصنع الثورة خارج شعبها وبمعزل عنه؟ وماذا يعرف من ينادون بفكر «أسامة» ويمارسون ممارسته عن «زهدي» و«أبو صابر» وهل يعرف هذا «الثوري الأنيق» و«البطر بأموال الثورة والخليج» معنى البطالة والبحث عن الرغيف، وعن المعاناة اليومية للحفاظ على الرغيف وعلى الهوية الوطنية؟

يقف في «هامش» الصورة ومنتصفها، أو في المركز الحقيقي الذي يعتبره البعض «هامشا»، الفلسطيني العادي الذي يصنع الثورة في صحته: «أبو صابر». إنسان فقير، غارق في همومه اليومية الكثيرة، في الأفواه التي يطعمها. مسرور لأنه عثر على عمل في «المصنع الإسرائيلي»، لكن «العمل» الذي يهبه «الفرج» يقطع أصابعه، ويقذفه إلى الخارج نازفا وكسيرا، لأن إدارة المعمل لا تستطيع إسعافه. فهو لا يملك «إذن عمل». أبو صابر هو